

اليمني فيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غيظه، فيرميه الثالثة، فيعود الحجر على رأسه فيشدخه، وعدوه سالم يضحك منه، فهذه الأدوية العلمية، فإذا تفكر الإنسان فيها، أخذت نار الحسد من قلبه. وأما العمل النافع فيه، فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد، فإذا بعثه على الحقد والقدر في المحسود، كلف نفسه المدح له، والثناء عليه، وإن حمله الكبر، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كف الإنعام عنه، ألزم نفسه زيادة في الإنعام. وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم، أهدوا إليه هدية. فهذه أدوية نافعة للحسد جداً، إلا أنها مرة، وربما يسهل شربها أن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد، فأرد ما يكون، وهذا هو الدواء الكلي، والله أعلم.

الدنيا

س: اذكر طرفاً من الآيات والأحاديث الواردة في ذم الدنيا والتزهيد فيها؟
 ج: الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدُ حُسْنِ الْمَتَابِ ١٦﴾ قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَم ﴿الآية [آل عمران: ١٤-١٥]، وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿وَرُحُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن دِكْرِنَا وَلَوْ بُرِّدَ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعَالَمِ ﴿[النجم: ٢٩-٣٠].

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من رواية المسور بن شداد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر به ترجع؟» [أخرجه مسلم (٢٨٥٨)].

وفي حديث آخر: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» [أخرجه مسلم (٢٩٥٦)] رواه مسلم.

وفي حديث آخر: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء». رواه الترمذي وصححه.

وفي آخر: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها» [أخرجه الدارمي (٣٢٢) والترمذي (٢٣٢٢)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٦٠٩)].

س: لو ذكرت بعض آثار السلف وأقوالهم في التزهيد في الدنيا وذمها وحالهم معها؟

ج: كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيه: «أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة، فاحذر يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذلل من أعزها، وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حثفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة، وكن أسر ما تكون فيها، احذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله ﷻ عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن، ما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا محمد ﷺ مفاتيحها وخزائنها، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، زواها الله عن الصالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه

أقر بها؟ ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا، فلم يخف أن يكون قدمك به، إلا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه». وقال مالك بن دينار: «اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء، يعني الدنيا».

س: اذكر بعض الأمثلة التي ضربها السلف للدنيا؟

ج: من أمثلة الدنيا: قال يونس بن عبيد: «شبهت الدنيا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه». ومثل هذا قولهم: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. والمعنى أنهم يتنبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به. قيل: إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتاء عليها من كل زينة. فقال لها: «كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيه». قال: فكلهم مات عنك أوكلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتل، فقال عيسى ﷺ: يؤسًا لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحدًا بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر». وروي عن ابن عباس ؓ قال: «يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلق، فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها، فتنادى: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها». وعن أبي العلاء، قال: «رأيت في النوم عجوزًا كبيرة عليها من كل زينة، والناس عكوف عليها متعجبون، ينظرون إليها، فقلت: من أنت وملك؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا، قالت: أنا الدنيا. فقلت: أعوذ بالله من شرك. قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم. وقال بعضهم: رأيت الدنيا في النوم عجوزًا مشوهة الخلقة حذباء». مثال آخر: واعلم أن أحوالك ثلاث: حال لم تكن فيها شيئًا، وهي قبل أن توجد. وحال أخرى، وهي من ساعة موتك إلى ما لا

نهاية له في البقاء السرمدي، فإن لنفسك وجودًا بعد خروجها من بدنك، إما في الجنة أو النار، وهو الخلود الدائم. وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة، وهي أيام حياتك في الدنيا، فانظر إلى مقدار ذلك، وانسبه إلى الحالتين، تعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا. ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف انقضت أيامه بها في ضرر وضيق، أوسعة ورفاهية، ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنه على لبنه، ولا قصبة على قصبة. وقال: «ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب، قال نحت شجرة، ثم راح وتركها» [أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٩٠)]. قال عيسى عليه السلام: «الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها». هذا مثل واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللحد هو الركن الثاني على آخر القنطرة. ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومن الناس من قطع ثلثها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحد وهو غافل عنها، وكيفما كان فلا بد من العبور، فمن وقف بينى على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها، فهو في غاية الجهل والحمق. وقيل: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا، ازداد عطشًا حتى يقتله. وكان بعض السلف يقول لأصحابه: «انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسممهم».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدجوا وانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم فصباحهم الجيش في مكانهم، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من حق» [أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣)].

س: وهل كل الدنيا مذمومة؟

ج: قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقًا، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب. وقد وضع الله في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تآقت متعوها، ظنًا منهم أن هذا هو الزهد المراد، وجهلاً بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لقلّة العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول:

اعلم: أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان، فيها حظ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدمي، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله ﷻ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضًا للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة على السير إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي الوسطى، وهي أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهى، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها.

وقد كان سفيان الثوري: «يأكل في أوقات من طيب الطعام، ويحمل معه في السفر الفالودج». وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات، ويقول: «إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال». ولينظر في سيرة رسول الله ﷺ وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط

في حقوق النفس. وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير، فلا يمنعها منه، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم، والزهد فيه يكون.

المال

س: هل المال مذموم؟

ج: المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما شدة حرصه أو تناوله من غير حله، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وفي «سنن الترمذي» عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلتا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» [أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣٥٧)، والترمذي (٢٣٧٦)، والدارمي (٢٧٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٢٠)]. وقد كان السلف يخافون من فتنة المال. وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: «ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر لشر أراده الله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له». وقال يحيى بن معاذ: «الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقه. وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله».

س: ما الفوائد الدينية والدنيوية للمال الحلال؟

ج: قد بينا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله تعالى خيراً، وهو قوام الآدمي. قال الله تعالى في أول سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْثِرُوا الْمَغْنَمَ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥].

وقال سعيد بن المسيب رحمته الله: «لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه». وقال أبو إسحاق السبيعي: «كانوا يرون السعة عوناً على الدين». وقال سفيان: «المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين». وحاصل الأمر؛ أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فتريقه فوائده، وغوائله سمه، فمن عرف فوائده وغوائله، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره. أما فوائده، فتقسم إلى دنيوية ودينية: أما الدنيوية، فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها. وأما الدينية، فتتخصر في ثلاثة أنواع:

أحدهما: أن ينفقه على نفسه؛ إما في عبادة، كاللحج والجهاد، وإما في الاستعانة على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرهما من ضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يتوصل إلى العبادة إلى به، فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل في هذا التمتع والزياد على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام:

أحدهما: الصدقة، وفوائدها كثيرة مشهورة.

القسم الثاني: المروءة، ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافته وهدية وإعانة ونحو ذلك، وهذا من الفوائد الدينية، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث: وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجو الشعراء، وثلب السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شرهم، فهذه الفوائد الدينية. وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة، ويحترز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

القسم الرابع: ما يعطيه أجراً على الاستخدام، فإن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لمهنة أسبابها كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك

الآخرة بالفكر والذكر للذين هما أعلى مقامات السالك، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك، ويحصل بذلك غرضك، فإن تشاغلك به غبن؛ لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم، والعمل والذكر والفكر أشد.

النوع الثالث: ما لا يصرفه الإنسان إلى معين، لكن يحصل به خيرًا عامًا، كبناء المساجد، والقطاير، والوقوف المؤبدة، فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالخطوط العاجلة، من الإخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقير، والعز بين الخلق، والكرامة في القلوب، والوقار.

وأما غوائل المال وآفاته، فتنقسم أيضًا إلى دينية ودنيوية:
أما الدينية فثلاث فئات:

الأولى: أنه يجبر إلى المعاصي غالبًا، لأن من استشعر القدرة على المعصية، انبعث داعيته إليها.

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصي، ومتى يس الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعيته إليها. ومن العصمة أن لا تجد، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يحرك إلى التمتع في المباحات، حتى تصير له عادة وإلفًا، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة، فيقتحم الشبهات، ويرتقى إلى آفات من المداينة والنفاق، لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يلهمه ماله عن ذكر الله تعالى، وهذا هو الداء العضال، فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى، والتفكير في جلاله وعظمته، وذلك يستدعي قلبًا فارغًا. وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرًا في

خصومة الفلاحين ومحاسبتهم خيانتهم، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج والإجراء على التقصير في العمارة ونحو ذلك. وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكرًا في خيانتة شريكه، وتقصيره في العمل، وتضييعه المال. وكذا سائر أصناف المال، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه. ومن له قوت يوم بيوم فهو في سلامة من جميع ذلك، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب.

فإذا تریاق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم وآفات.

الحرص والطمع

س: تحدث عن ذم الحرص والطمع ومدح القناعة؟

ج: في «صحيح مسلم» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه» [أخرجه مسلم (١٠٥٤)]. وقال سليمان بن داود عليه السلام: «قد جربنا العيش كله، لينه من شديده، فوجدناه يكفي منه أدناه».

وقال أبو حازم: «ثلاث من كن فيه كمل عقله، من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله ﷻ». وقرأ بعض الحكماء: «أنت أخو العز ما التفت بالقناعة».

أما الحرص، فقد نهى عنه رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس، أجهلوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له» [أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، والحاكم في «المستدرک» (٢١٣٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٣٢٣)].

وقال بعضهم: «لو قيل للطمع: من أبوك؟ قال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل له: ما غابتك؟ قال: الحرمان». وقيل: الطمع يذل الأمير، واليأس يعز الفقير.

س: وما علاج الحرص والطمع؟

ج: اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور: الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويرد نفسه إلى ما لا بد منه، فيقنع بأي طعام كان، وقليل من الإدام، وثوب واحد، ويوطن نفسه على ذلك، وإن كان له عيال، فيرد كل واحد إلى هذا القدر. وفي الحديث: «ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضى والغضب» [أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥١٢٢)].

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين بأن رزقه لا بد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر. وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي، أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا لله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله ﷻ، فإنه لا يدرك عند الله إلا بطاعته» [أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٩٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٦/١٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٠٨٥)].

وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن لم يؤثر عز نفسه عن شهوته، فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان.

الرابع: أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم، ويطالع أحوالهم، ويخبر عقله بين متشابهة أراذل العالمين، أو صفوة الخلق عند الله تعالى، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلًا منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفادًا منه.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، كما ذكرنا في آفات المال، وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم ذلك بأن ينظر أبدًا إلى من دونه في الدنيا، وإلى من فوقه في الدين، كما جاء في الحديث من رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» [أخرجه مسلم].

عماد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء.

س: ومتى يستعمل العبد القناعة ومتى يستعمل الإيثار؟

ج: ينبغي لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف، فإن السخاء أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة.

وقال ابن السماك: «عجبت ممن يشتري الممالك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه؟!»

س: لو ذكرت بعض حكايات الأسخياء وأخبارهم؟

ج: قد صح عن النبي ﷺ أنه: «كان أجود بالخير من الريح المرسلة» [أخرجه البخاري (٣٥٥٤)، ومسلم (٢٣٠٨)]. وأنه: «ما سئل شيئًا قط فقال: لا» [أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (١٠١٦)]. «وأن رجلًا سأله، فأعطاه غنمًا بين جبلين، فأثنى الرجل

قومه، فقال: يا قوم: أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر» [أخرجه مسلم (٢٣١٢)]. وقيل: «كان لعثمان على طلحة رضي الله عنه خمسون ألف درهم، فخرج إلى المسجد، فقال له طلحة: قد نهباً مالك فاقبضه، فقال: هولك يا أبا محمد معونة على مروءتك».

وجاء أعرابي إلى طلحة، فسأله، وتعرف إليه برحم، فقال: «إن هذه الرحم، ما سألني بها أحد قبلك، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم». وقال عروة: «رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً، وهي ترفع درعها». وروي: «أنها قسمت في يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس، فلما أمتت قال: يا جارية علي فطوري، فجاءتها بنخز وزيت: فقالت لها أم درة: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟! فقالت: لو ذكرتني لفعلت». واشترى عبد الله ابن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: «ما هؤلاء؟ قالوا: سيكون على دارهم، قال: يا غلام: اتهم، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً». وبعث رجل إلى عبد الله أنه قد وصف لي لبن البقر، فابعث لي بقرة أشرب من لبنها. فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها، وقال: «القرية التي كانت ترعى فيها لك».

ودخل علي بن الحسن على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل يبكي: فقال: «ما شأنك؟ قال: علي دين، قال: كم؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، أوبضعة عشر ألف دينار. قال: فهي علي».

وبلغنا عن معن أن شاعرًا أقام ببابه مدة فلم يتهياً له لقاءه، فقال لبعض خدمه: «إذا دخل الأمير البستان فعرفني، قال: فلما دخل عرفه، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، فلما بصر معن بالخشبة، أخذها، فإذا فيها مكتوب:

أيا جود معن ناج معنًا بحاجتي فما لي إلى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه؟ فدعا الرجل، فقال له: كيف قلت؟ فقال له، فأمر له بعشر بدر، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط، وقرأ ما فيها، ودعا الرجل، فدفع إليه مائة ألف درهم أخرى، فلما أخذها الرجل، خاف أن يعود فيستعيدها منه، فخرج، فلما كان اليوم الثالث، قرأ ما فيها، فدعا الرجل فطلبه فلم يوجد. فقال معن: حق علي أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار».

ومرض قيس بن سعد بن عبادة: فاستبطأ إخوانه، فقليل له، إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: «أخزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً، ينادي: من كان عليه لقيس حق، فهو منه في حل، قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده».

وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله: فأمر له بمائة ألف درهم، فبكى، فقال: سعيد: «ما يبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى».

البخل

س: اذكر بعض الأحاديث في ذم البخل؟

ج: قال ﷺ: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً» [أخرجه النسائي (٣١١٠)، (٣١١١)، (٣١١٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٦١٦)]. وفي أفراد مسلم، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل» [أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦)]. وروى جابر رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ لبني سلمة: «إن سيدكم؟ قالوا: جد بن قيس على أننا نبخله، قال: وأي داء أدوا من البخل؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن

معروور» [أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٠٣)، والحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» (٤٩٦٥)، (٧٢٩٣)]. وعن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» [أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٤٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٤٥)]. قال الخطابي: الشح في المنع أبلغ من البخل.

س: لو ذكرت بعض الأقوال في ذم البخل؟

ج: قال بعض الحكماء: «من كان بخيلاً ورث ماله عدوه»، ووصف أعرابي رجلاً فقال: «لقد صغر في عيني لعظم الدنيا في عينه». وذم أعرابي قوماً فقال: «يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش».

س: اذكر بعض حكايات البخلاء؟

ج: روي عن ابن عباس رضيه الله عنه قال: «كان الحاجب رجلاً من أجل العرب، وكان بخيلاً، وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة أن يراها راء فيتتفع بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم إذا بصر بمستضيء بها أطفأها»، وقيل: كان مروان بن أبي حفصه من أبخل الناس، فخرج يريد المهدي، فقالت له امرأته: «ما لي عليك إن رجعت بالجائزة؟»

قال: إن أعطيت مائة ألف درهم، أعطيتك درهماً، فأعطى ستين ألف درهم فأعطاهم أربعة دنانق».

وقيل: كان بعض البخلاء موسراً كثيراً الأموال، وكان ينظر في دقائق الأشياء فاشترى شيئاً من الخوائج، ودعا حملاً وقال: «بكم تحمل هذه الخوائج؟ قال: بحبة. قال: أبخس. قال ما أقل من حبة؟ لا أدري ما أقول. قال: نشري بالحبة جزراً، فنجلس جميعاً فنأكله».

س: وما هي أرفع درجات السخاء؟

ج: أرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه. وأشد

درجات البخل، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال، ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل. فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة، وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عطايا يضعها الله ﷻ حيث يشاء. وليس بعد الإيثار درجة في السخاء. وقد أثنى الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٨] وكان سبب نزول هذه الآية قصة أبي طلحة، لما أثر ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه، وحكايته مشهورة. واستشهد باليرموك عكرمة ابن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، فأتوا بماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه. أتى عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل ابن عمرو ينظر إليه، فقال: «ابدأ بهذا، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشرية، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم». وأهدي إلى الرجل من الصحابة رضي الله عنهم رأس شاة، فقال: «إن أخي أحوج إليه مني، فبعث به إلى رجل، فبعث به ذلك إلى آخر، حتى تداولته سبع أبيات، فرجع إلى الأول». خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فتزل على نخل لقوم فيها غلام أسود يعمل فيها، إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب، فدنا من الغلام فرمى إليه قرصاً فأكله، ثم رمى إليه قرصاً آخر فأكله، ثم رمى إليه ثالث فأكله، وعبد الله ينظر فقال: «يا غلام! كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم أثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، جاء من مسافة بعيد جائعاً فكرهت رده، قال: فما أنت صانع؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء وهذا أسخي مني، فاشتري الحائط وما فيه من الآلات، واشتري الغلام وأعتقه ووهبه له».

واجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للأكل، فلما رفع الطعام، إذا

هو بحالة، لم يأكل أحد منهم شيئاً إيثاراً لأصحابه.

س: وما هو الحد الفاصل بين البخل والسخاء؟

ج: تكلم الناس في حد البخل والسخاء، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب، وأن من أدى ما يجب عليه، فليس ببخل، وهذا غير كاف، فإن من لم يسلم إلى عياله إلا القدر الذي يفرضه الحاكم، ثم يضايقهم في زيادة لقمة أو ثمرة فإنه معدود من البخلاء، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب في الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل. فأما الواجب بالشرع، فهو الزكاة، ونفقة العيال. وأما اللازم بطريق المروءة، فهو ترك المضايقة، والاستقصاء عن المحقرات، فإن ذلك يستقبح، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يستقبح من الغني ما لا يستقبح من الفقير، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب، فالبخليل الذي يمنع ما لا ينبغي أن يمنع، إما بحكم الشرع أولاًزم المروءة. ومن قام بواجب الشرع، ولازم المروءة، فقد تبرأ من البخل، لكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك.

قال بعضهم: الجواد: هو الذي يعطي بلا من. وقيل: هو الذي يفرح بالإعطاء. فأما علاج البخل، فاعلم أن سبب البخل حب المال. وحب المال سببان: أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصير الأمل وله ولد، فإنه يقوم مقام طول الأمل.

الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به، ويفضل معه آلاف، ويكون شيخاً لا ولد له، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه، ولا بصدقة تنفعه، ويعلم أنه إذا مات أخذه أعداؤه، أوضاع إن كان مدفوناً، وهذا مرض لا يرجى علاجه. ومثال ذلك مثال رجل أحب شخصاً، فلما جاء رسوله، أحب الرسول ونسي محبوبه واشتغل بالرسول، فإن الدنيا رسول مبلغ إلى الحاجات، فيحب الدنانير لذاتها، وينسى الحاجات، وهذا غاية الضلال.

واعلم: أن علاج كل علة بمضادة سببها؛ فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت. ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن من خلقه خلق معه رزقه، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً ممن ورث. فليحذر أن يترك لولده الخير، ويقدم على الله بشر، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه، وإن فاسقاً فلا يترك ما يستعين به على المعاصي، وليردد على سمعه ما ذكرناه في ذم البخل ومدح السخاء.

واعلم: انه إذ كثرت المحبوبات في الدنيا، كثرت المصائب بفقدائها، فمن عرف آفة المال لم يأنس به، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل، والله أعلم.

الرياء

س: وضع خطر الرياء؟

ج: هذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامة العباد، وإنما يبتي بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات، لم تطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فأصابته النفس في ذلك لذة عظيمة، فاحتقرت فيها ترك المعاصي، فأحدهم يظن أنه مخلص لله ﷻ، وقد أثبت في ديوان المنافقين، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون. ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة، وإذا كان ذلك هو الداء الدفين، الذي هو أعظم شبكة للشياطين.

س: وما الأسباب الباعثة على الرياء؟

ج: اعلم: أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار، وذلك خطر عظيم، والسلامة في الخمول. وأهل الخير لم يقصدوا الشهوة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالى، فروا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من منزله، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: «علام تتبعوني؟ فوالله لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلاً». وفي لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبع. وكان أبو العالية رضي الله عنه: «إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام» [أخرجه ابن أبي شبة في «مصنفه» (٢٦٣١٦)، وأحمد بن حنبل في «العلل ومعرفة الرجال» (٢٩٨٤)، وأبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (٢١٨/٢)].

وكان خالد ابن معدان رضي الله عنه: «إذا عظمت حلقتي، قام وانصرف كراهة الشهوة». وقال الزهري رضي الله عنه: «ما رأينا الزهد في شيء أقل من في الرياسة، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة، حامي عليها وعادي». قال رجل لبشر الحافي رضي الله عنه: أوصني، فقال: «أخل ذكرك، وطيب مطعمك. وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس». وقد روي في «صحيح مسلم» أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهو في غنم له خارجاً عن المدينة، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الركب، فلما أتاه قال: يا ابت أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره وقال: أسكت، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي» [أخرجه مسلم (٢٩٦٥)].

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يوصي أصحابه، فيقول: «كونوا يتابع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت سرج الليل، جدد القلوب، خلقتان الثياب، تعرفون في السماء، وتخفون على أهل الأرض». فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء.

قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير

طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه، فأما السابح النحرير، فإن تعلق الغرق به سبب لنجاتهم وخلاصهم.

س: لو وضحت العلاقة بين حب الجاه والمال؟

ج: الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها، وطاعتها، والتصرف فيها. فالجاه هو قيام المنزل في قلوب الناس، وهو اعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال في هذا الشخص إما علم أو عبادة، أو نسب أو قوة، أو حسن صورة، أو غير ذلك مما يعتقد الناس كملاً فبقدر ما يعتقدون له من ذلك، تدعن قلوبهم لطاعته، ومدحه وخدمته، وتوقيره.

فهذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع، وأنه أبلغ من حب المال، لأن المال لا يتعلق الغرض بعينه، بل لكونه وسيلة إلى المحبوبات، فاشترك الجاه والمال في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، والجاه في ذلك أرجح من المال. واعلم: أن من الجاه ما يحمد وما يذم، لأن من المعلوم أنه لا بد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما، فكذلك لا بد له من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة إلى سلطان يحرسه، ورفيق يعينه، وخادم يخدمه، فحبه ذلك ليس بمذموم، لأن الجاه وسيلة إلى الأغراض، كالمال.

والتحقيق في هذا أن لا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانها، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هو متصف بها لغرض صحيح، كقول يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥] أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لثلا تزول منزلته، كان ذلك مباحاً، فإن طلب المنزل باعقادهم فيه صفة ليست فيه، كالعلم، والورع، والنسب، فذلك محذور. وكذلك لو حسن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع، فإنه يكون مرئياً بذلك، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير، ولا تملك المال بتلبيس.

س: وما علاج حب الجاه؟

ج: من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوقاً بالتردد إليهم، والمرأة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق، وأصل الفساد، لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خال عنه، ويجر ذلك إلى المراءاة بالعبادات واقتحام المحظورات، والتوصل إلى اقتناص القلوب. ولذلك شبه الرسول ﷺ حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذنبيين ضارين أرسلنا في غنم.

فحب الجاه إذاً من المهلكات، يجب علاجه، وعلاجه مركب من علم وعمل، أما الأول، فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه، هو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسلم يكون في آخره الموت، فينبغي أن يتفكر في نفسه في الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه في الدنيا، من تطرق الحسد إليهم، وقصدهم بالإيذاء، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم، محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب. والقلوب أشد تغيراً من القدرة في غلبانها، فلاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة، مكدره لحفظ الجاه، فلا يفي مرجو الدنيا بمخوفها، فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهذا من حيث العلم.

وأما العلاج من حيث العمل، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك، كما روي أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد، فلما قرب منه، استدعى طعاماً وبقلاً ولبناً، وجعل يأكل بشره، ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه. ولما أريد إبراهيم النخعي على القضاء لبس قميصاً أحمر وقعد في السوق.

واعلم: أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عندهم، فإذا خاف من تلك الفتنة، فليخالطهم على وجه السلامة، وليمش في الأسواق، وليشتر حاجته ويحملها، وليقطع طمعه من دنياهم، وقد تم مراده. وكان بشر الحافي يجلس إلى عطار، وكانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم.

س: وضع خطورة الاهتمام بمدح الناس وذهمهم؟

ج: أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس، رجاء المدح، وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فوجبت معالجته. وطريق ذلك أن تنظر إلى الصفة التي مدحت بها، إن كانت موجودة فيك فلا يخلو: إما أن يكون مما يفرح به كالعلم والورع، أو مما لا يصلح أن يفرح به، كالجاه والمال.

أما الأول، فينبغي أن يحذر من الخاتمة، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس. وأما القسم الثاني، وهو المدح بسبب الجاه والمال، فالفرح بذلك، كالفرح بنبات الأرض الذي يصير عن قريب هشيماً، ولا يفرح بذلك إلا من قل عقله، وإن كنت خالياً عن الصفة التي مدحت بها، ففرحك بالمدح غاية الجنون.

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم في كتاب آفات اللسان، فلا ينبغي أن تفرح به، بل تكرهه، كما كان السلف يكرهونه، ويفضون على فاعله. وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح، فإنه ضده، والقول الوجيز فيه أن من ذمك، إما أن يكون صادقاً فيما قال، قاصداً للنصح لك، فينبغي أن تتقصد منه، ولا تغضب، فإنه قد أهدى إليك عيوبك، وإن لم يقصد بذلك النصح، فإنه يكون قد جنى هوى دينه، وانتفعت بقوله، لأنه عرفك ما لم تكن تعرف، وذكرك من خطاياك ما نسيت، وإن افترى عليك بما أنت منه بريء، فينبغي أن تتفكر في ثلاثة أشياء:

أحدهما: أنك إن خلوت من ذلك العيب لم تخل من أمثاله، فما ستر الله ﷻ عليك من عيوبك أكثر، فاشكره إذ لم يطلعك على عيوبك ودفعه عنك فذكر ما أنت عنه بريء.

الثاني: أن ذلك كفارات لذنوبك.

الثالث: أنه جنى على دينه، وتعرض لغضب الله عليه، فينبغي أن يسأل الله

العفو عنه، كما روي أن رجلاً شج إبراهيم بن أدهم، فدعا له بالمغفرة وقال: صرت مأجوراً بسببه، فلا أجعله معاقباً بسببي، وقد تقدمت هذه الحكاية في فضل الحلم.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في ذم الرياء؟

ج: قد ورد ذم الرياء في الكتاب والسنة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٤-٦] وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وأما الأحاديث، فقد روي عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» [أخرجه مسلم (٢٩٨٥)]. وفي حديث آخر: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا، هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ خَيْرًا» [أخرجه أحمد (٢٣١١٩)، (٢٧٧٤٢)]، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٥٥٥). وقال بشر الحافي: «لأنَّ أطلب الدنيا بمزمار أحب إلي من أن أطلبها بالدين». واعلم: أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، فالمرائي يرى الناس ما يطلب به الخطوة عندهم وذلك أقسام.

س: اذكر أقسام الرياء، مع تفصيل القول في كل نوع، وبيان خطره؟

ج: الأول: الرياء في الدين، وهو أنواع:

أحدهما: أن يكون من جهة البدن، بإظهار النحول والصفار، ليرى بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، وكذلك يراني بتشعث الشعر، ليظهر أنه مستغرق فيهم الدين، لا يتفرغ لتسريح شعره.

ويقرب من هذا خفض الصوت، وإغارة العينين، وذبول الشفتين، ليدل بذلك

على أنه مواظب على الصوم، ولهذا قال عيسى بن مريم عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه، ويرجل شعره. وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين.

وأما أهل الدنيا، فيراؤون بإظهار السمن، وصفاء اللون، واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن.

النوع الثاني: الرياء من جهة الزي، كالإطراق حالة المشي، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف، وتشمير الثياب كثيرًا، وتقصير الأكمام، وترك الثوب محرقًا غير نظيف. ومنه التقنع فوق العمامة، لتصرف إليه الأعين بالتمييز بتلك العادة. وهؤلاء طبقات، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح، بإظهار التزهد بلبس الثياب المخرقة الوسخة الغليظة، ليرائي بذلك، ولو كلف هذا أن يلبس ثوبًا وسطًا نظيفًا مما كان السلف يلبسونه، لكان عنده بمنزلة الذبح، لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزهد، وقد رجع عن تلك الطريقة. وطبقة أخرى: يطلبون القبول عند أهل الصلاح، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء أهل الصلاح، ولولبسوا المخرقة الدنية لآذرتهم الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فيطلبون الأثواب الرقيقة، والأكسية الرفيعة والفوط الرفيعة فيلبسونها، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغني، ولونه وهيئته لون ثياب الصالحاء، فيلتمسون القبول عند الفريقين.

وهؤلاء لو كلفوا لبس خشن أو وسخ، لكان عندهم كالذبح، خوفًا من السقوط في أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك، لعظم ذلك عليهم، خوفًا من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح، وكل مرء بزي مخصوص ثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو فوقه خوفًا من المذمة. وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالثياب النفيسة، والمراكب الحسنة، وأنواع التجميل في الملابس والمسكن

وأثاث البيت، وهم في بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة، ويشتد عليهم أن يروا بتلك المنزلة.

النوع الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار، لأجل المحاورة، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاحص في الكلام ونحو ذلك.

النوع الرابع: الرياء، كمرأة المصلي بطول القيام، وتطويل الركوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذلك.

وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم، بالتبخر، والاختيال، وتحريك اليدين، وتقريب الخطي، والأخذ بأطراف الذيل، وإمالة العطفين، ليدلوا بذلك على الحشمة.

النوع الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً أو عابداً، ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، وإن أهل الدين يترددون إليه، ويتبركون به، وكذلك من يرأي بكثرة الشيوخ، ليقال: لقي شيوخاً كثيرة، واستفاد منهم، فيباهي بذلك، فهذه مجامع ما يرأي به المراءون، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

ومنهم من يطلب مجرد الجاه، وكم من عابد اعتزل في جبل، وراهب انزوى إلى دير، مع قطع طمعهم من مال الناس، لكنه يحب مجرد الجاه.

ومنهم من يكون قصده المال، ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصيت. فإن قيل: هل الرياء حرام، أم مكروه، أم مباح؟

فالجواب: أن فيه تفصيلاً، وهو إما أن يكون بالعبادات، أو بغيرها، فإن كان الرياء بالعبادات، فهو حرام، فإن المرأي بصلاته وصدقته وحجته، ونحو ذلك، عاص آثم، لأنه يقصد بذلك غير الله تعالى المستحق للعبادة وحده، فالمرأي بذلك في سخط الله.

وأما إن كان بغير العبادات، فهو كطلب المال على ما تقدم، لا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتليسات وأسباب محظورة، فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليها الإنسان محمود، فكذلك الجاه، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام في قوله: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٥٥] ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثّر، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز على نحو ما ذكرنا في المال. وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه، ومن غير اغتمام بزواله وإن زال، فلا ضرر فيه، إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وعلماء الدين بعده، ولكن انصراف الهمم إلى طلب الجاه نقصان في الدين، ولا يوصف بالتحريم. وتحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس، إنما هو ليراه الناس، وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال: إنه منهى عنه.

وقد تختلف المقاصد بذلك، فإن أكثر الناس يحبون أن لا يروا بعين نقص في حال. وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: غن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنة، ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» [أخرجه مسلم (٩١)]. ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه، وقد أمر رسول الله ﷺ بذلك.

س: وما هي أبواب الرياء، وما هي درجاته؟

واعلم: أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض، لأنه درجات.

أشدّها وأغلظها: أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين

الناس، ولو انفرد لم يصل.

الدرجة الثانية: أن يقصد الثواب مع الرياء قصدًا ضعيفًا بحيث لو كان خاليًا لم يفعله، فهو قريب من القسم الأول في كونها ممقوتين عند الله تعالى.

الثالثة: أن يكون قصد الرياء، وقصد الثواب متساويين، بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يعثه على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، ولا يسلم من الإثم.

الرابعة: أن يكون اطلاع الناس عليه مقويًا لنشاطه، ولولم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة، فهذا يثاب على قصده الصحيح، ويعاقب على قصده الفاسد، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها، كالذي يصلي وغرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن ذلك فهذا أيضًا من الرياء المحذور، لأنه يتضمن تعظيم الخلق، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات.

س: ما هو الرياء الخفي وما خطورته؟

ج: اعلم أن الرياء جلي وخفي. فالجلي: هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه. وأخفى منه قليلًا رياء لا يبعث على العمل بمجرد، لكن يخفف العمل الذي أريد به وجه الله تعالى، كالذي يعتاد التهذ كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نشاط له وسهل عليه. وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل، لكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومتى لم يؤثر الدعاء في العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أنه يسر بإطلاع الناس على طاعته، فرب عبد مخلص يخلص العمل، ولا يقصد الرياء بل يكرهه، ويتم العمل على ذلك، لكن هذا أطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة، فهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح، ولولا الالتفات إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فيعلم أن الرياء كان مستكنًا في القلب استكنان النار في الحجر، فأظه منه اطلاع الناس أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر تلك اللذة بالاطلاع لم يقابل ذلك

بكراهة، بل قد يتحرك حركة خفيفة، ويتكلف أن يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح.

وقد يخفي، فلا يدعوا إلى الإظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً، ولكن بالشمايل كإظهار النحول، والصفار، وخفض الصوت، وبس الشفتين وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يخفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المعاملة، ويوسعوا له المكان، فإن قصر في ذلك مقصر، ثقل ذلك على قلبه، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها.

ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء، وكل ذلك يوشك أن ينقص الأجر، ولا يسلم منه إلا الصديقون.

وقد روينا عن وهب بن منبه، أن رجلاً من العباد قال لأصحابه: إنا قد فارقتنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وأنا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن كان له حاجة أحب أن تقضي لمكان دينه: وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم، فركب في موكبه، فإذا السهل والجليل قد امتلأ من الناس، فقال العابد: ما هذا؟ قيل: هذا الملك، فقال لصاحبه: اثني بطعام. فأتاه ببقل وزبيب وقلوب الشجر، فجعل يحشو شذقيه ويأكل أكلاً عنيقاً، فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، فقال: كيف أنت؟ قال: كالناس، فقال الملك: ما عند هذا خير، وانصرف عنه، فقال: الحمد لله الذي صرفه عني وهولي لائماً.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في مخادعة الناس عن

أعمالهم الصالحة، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم.

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته أولاً يطلع، ففيه شعبة من الرياء، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر ومفسداً للعمل، بل فيه تفصيل.

فإن قيل: فما ترى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته، فهل جميع ذلك مذموم؟

فالجواب: أن السرور ينقسم إلى محمود ومذموم:

فالمحمود: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيسر بحسن صنع الله ونظره له ولطفه به، حيث كان يستر الطاعة والمعصية، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة، وستر عليه المعصية، ولا لطف أعظم من ستر القبيح، وإظهار الجميل، فيكون فرحة بذلك، لا بحمد الناس وقيام المنزل في قلوبهم، أويستدل بإظهار الله الجميل، وستر القبيح عليه في الدنيا، أنه كذلك يفعل به في الآخرة، فإنه قد جاء معنى ذلك في الحديث [أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨)].

فأما إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه، فهذا مكروه ومذموم.

فإن قيل: فما وجه حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطلع عليه، أعجبه، فقال: «له أجران: أجر السر، وأجر العلانية» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٤)، وابن ماجه (٤٢٢٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» برقم (٤٧٨٧)، وقال «ضعيف»].

فالجواب: أن هذا الحديث ضعيف، وقد رواه الترمذي، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه: أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير، لقوله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض» [أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩)]. وقد روي في أفراد مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» [أخرجه مسلم (٢٦٤٢)].

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه، فهذا رياء.

س: لو أمكن بيان ما يحبطه الرياء من العمل؟

ج: إذا ورد على العبد وارد الرياء، فلا يخلو: إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه، فهذا لا يحبط العمل، لأنه قد تم على نعت الاخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده، لا سيما إذا لم يتكلف هوإظهار والتحدث به، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره، فهذا مخوف، والغالب عليه أنه كان في قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء، فإن سلم من الرياء نقص أجره، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة.

وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة، كالصلاة التي عقدها على إخلاص فإن كان مجرد سرور، لم يؤثر في العمل، وإن كان رياء باعثاً على العمل، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه، فهذا يحبط الأجر.

وأما ما يقارن العبادة، مثل أن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها، وإن ندم فيها على فعله، فالذي ينبغي له أن يبتدئها، والله أعلم.

س: وما هو دواء الرياء، وكيف السبيل إلى علاجه والتخلص منه؟

ج: قد عرفت أن الرياء محبط للأعمال، وسبب لمقت الله تعالى، وأنه من المهلكات، ومن هذا حاله، فجدد بالتشمير عن ساق الجد في إزالته.

وفي معالجته مقامان:

أحدهما: في قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: في دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فصل، رجع غلى ثلاثة أصول.

وهي حب لذة الحمد، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس. ويشهد لذلك ما في «الصحيحين» من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرايت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاقل حمية، ويقاقل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله» [أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)].

فمعنى قوله: «يقاقل شجاعة» أي: ليذكر ويحمد، ومعنى قوله: «يقاقل حمية» أي: يأنف أن يقهر أو يذم، ومعنى: «يقاقل رياء» أي: ليرى مكانه، وهذا هولذة الجاه والمنزلة في القلوب.

وقد لا يشتهي الإنسان الحمد، ولكنه يحذر من الذم، كالجبان بين الشجعان، فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم. وقد يفتي الإنسان بغير علم حذرًا من الذم بالجهل، فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك إلى الرياء.

وعلاجه أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع، إما في الحال أو المآل، فإن علم أنه لذيق في الحال ضار في المآل، سهل عليه اجتنابه وقطع عنه الرغبة، كمن يعلم أن العسل لذيق، ولكن إذا بأن أن فيه سمًا، أعرض عنه، فكذلك طريق هذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرة، فإن الإنسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، ومن المنزلة في الآخرة، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزي، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة

قلوب الخلق، فإن رضي الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضي به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله، سخط الله عليه وأسخطهم عليه. ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم؟ ولا يزيد مدحهم رزقًا ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته. وكذلك ذمهم لم يحذر منه؟ ولا يضره ذمهم شيئاً ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، فإن العباد كلهم عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإذا قرر هذا في نفسه، فترت رغبته في الرياء، وأقبل على الله تعالى بقلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه. وأما الطمع فيما في أيدي الناس، فيزيله بأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنه لا رازق سواه، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد، لم يخل من المنة والمهانة، فكيف بترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد.

ومن الدواء النافع أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونهما، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال، وذلك يشق في بداية المجاهدة، فإذا صبر عليه مدة بالتكليف، سقط عنه ثقله، وأمدّه الله بالعون، فعلى العبد المجاهدة، ومن الله التوفيق.

المقام الثاني: في دفع العارض من الرياء أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط نفسه من أعين الناس، واحتقار مدحهم وذمهم، فإن الشيطان لا يتركه في أثناء العبادة، بل يعارضه بمخاطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته وإطلاعهم عليها، دفع ذلك بأن يقول: مالك وللخلق علموا أولم يعلموا، والله عالم بمالك، فأني فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد، ذكرها آفات الرياء والتعرض للمقت، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت، فإن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة، ومعرفة آفة

الرياء تثير كراهة.

س: ما هو تقسيم الأعمال من حيث الجهر بها والإسرار؟

ج: فاعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب الناس في الخير.

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد.

والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي، بل ينوي الاقتداء به، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم، وأقبل عليهم حتى تشبثوا به، فهلكوا وهلك معهم.

فأما من قوي وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، فلا بأس بالإظهار له، لأن الترغيب في الخير خير.

وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقنّدي بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: لا تبكوا علي، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت.

وقال أبو بكر بن عياش رحمته الله لابنه: «إياك أن تعصي الله تعالى في هذه الغرفة، فإني ختمت فيها اثنتي عشرة ألف ختمة».

ونحو ذلك كثير من كلامهم، والله أعلم.

وأما الرخصة في كتمان الذنوب، [فربما ظن ظان أن كتمان الخطايا رياء، وليس كذلك فإن الصادق] الذي لا يراي إذا وقعت منه معصية، كان له سترها، لأن الله يكره ظهور المعاصي ويجب سترها.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات، فليستر بستر الله ﷻ» [أخرجه الحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» (٧٦١٥)، (٨١٥٨)، والبيهقي في «السنن

الكبرى» (٨/ ٣٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٤٩).
فهذا وإن عصي بالذنب، لم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله ﷻ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان.

وينبغي أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضًا، فهذا أثر الصدق فيه.
ومن ذلك أن يكره ذم الناس له، من حيث أن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم، وبهذه العلة أيضًا ينبغي أن يكره المدح إذا كان يشغله عن الله تعالى، ويستغرق قلبه، ويصرفه عن الذكر، فإن هذه أيضًا من قوة الإيمان.

س: ما حكم ترك الطاعات خوفًا من الرياء؟

ج: ترك الطاعات خوفًا من الرياء، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك، لأنه معصية لا طاعة فيه.

وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصًا، فلا ينبغي أن يترك العمل، لأن الباعث الدين.

وكذلك إذا ترك العمل خوفًا من أن يقال: إنه مراء، فلا ينبغي ذلك، لأنه من مكائد الشيطان. قال إبراهيم النخعي: «إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة فقال: إنك مراء، فزدها طولًا». وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفًا من الرياء. كما روي عن إبراهيم النخعي أن إنسانًا دخل عليه وهو يقرأ في المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة، وقال: لا يراني هذا أي أقرأ كل ساعة، فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا.

س: وماذا لو نشط الإنسان في العمل والعبادة إذا كان بصحبة الناس هل هذا من الرياء؟

ج: قد يبيت الرجل مع المتهجدين، فيصلون أكثر الليل، وعادته قيام ساعة،

فيوافقهم، أويصومون فيصوم، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط. فربما ظن ظان أن هذا رياء، وليس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفصيل، وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى، ولكن تعوقه العوائق، وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة واندفاع العوائق، فإن الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء ومع بزوجته، فإذا بات في مكان غريب، اندفعت هذه الشواغل، وحصلت له أسباب تبعث على الخير، منها مشاهدة العابدين.

وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم، بخلاف غيره، ففي مثل هذه الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة، ويقول: إذا عملت غير عادتك كنت مرئياً، فلا ينبغي أن يلتفت إليه، وإنما ينبغي أن ينظر إلى قصده الباطن، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان.

ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه، فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء، وقس على هذا. فهذه جملة آفات الرياء، فكن بحاثاً عنها، وتفقد نيتك، فإن الرياء أخفى من ديب النملة. وينبغي لطالب الآخرة أن يلزم قلبه القناعة بعلم الله في جميع طاعته، وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه، ولا ينبغي أن يؤيس نفسه من الإخلاص بأن يقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، وأنا مع المخلطين، فترك المجاهدة في تحصيل الإخلاص، لأن المخلط إلى ذلك أحوج.

قال إبراهيم بن أدهم: «تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان، دخلت على صومعته فقلت له: منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت: ما طعامك؟ قال: كل ليلة حمصة، قلت: فما الذي يبيع من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الذين بجذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها يعظموني بذلك، فكلما تناقلت نفسي عن العبادة، ذكرت عاز تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوفر في قلبي المعرفة، فقال: أزيدك؟ قلت: نعم،

قال: انزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى إلى ركوة فيها عشرين حصاة، ثم قال لي: أدخل الدير، فقد رأوا ما أدليت إليك، فلما دخلت الدير، اجتمعت النصارى فقالوا: يا حنفي، ما الذي أدلى الشيخ؟ قلت: شيئاً من قوته. قالوا: وما تصنع به؟ نحن أحق به، ساوم به. قلت: عشرون ديناراً، فأعطوني عشرين ديناراً، فرجعت إلى الراهب، فقال: أخطأت، لو ساومتهم عشرين ألفاً لأعطوك، هذا عز من لا يعبد، فانظر كيف يكون عز من يعبد، يا حنفي أقبل على عبادة ربك».

فقد بان بهذا أن استشعار النفوس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً إلى الخلوة، فهذه آفة عظيمة، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهايم بمثابة واحدة، ويكون عمله عمل من ليس على الأرض غيره، فإذا خطرت خطرات ضعيفة ردها الله، والله تعالى أعلم.

الكبر

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في ذم الكبر؟

ج: قال الله تعالى: ﴿سَامِرُفٌ عَنْ ءِتْيَى الَّذِينَ يَكْبَرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]. وفي الحديث الصحيح من أفراد مسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» [أخرجه مسلم (٩١)].

وفي «الصحيحين» عنه ﷺ قال: «قالت النار: أوثرت بالمتكبرين» [أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)]. وعنه ﷺ أنه قال: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر، يطوهم الناس لهوانهم على الله ﷻ». وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: «من كانت معصيته في شهوة، فارج له التوبة، فإن آدم ﷺ عصي مشتهياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاخش عليه اللعنة، فإن إبليس عصي مستكبراً فلعن».

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فقال أبوبكر: يا رسول الله إن أحد شقي إزاري ليسترخي، إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «لست ممن يصنعه خيلاء» [أخرجه البخاري (٥٧٨٤)، ومسلم (٢٠٨٥)].

واعلم: أن الكبر خلق باطن تصدر عن أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعني نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً.

وبهذا ينفصل عن العجب، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجباً، ولا يتصور أن يكون متكبراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حقر من دونه وازدراه، وصفة هذا المتكبر، أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً واستحقاراً.

وآفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء. وكيف لا تعظم آفته، وقد أخبر النبي ﷺ: أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم وقبول النصيح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم. فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه. ومن شرع أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له. وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُتُوًا﴾ [النمل: ١٤] ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [ابراهيم: ١٠] وآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله.

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضًا يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم ﷺ أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود.

وقد شرح رسول الله ﷺ الكبر فقال: «الكبر: بطر الحق وغمط الناس». ومعنى غمط الناس: الازدراء بهم، واستحقارهم. ويروى: غمص الناس، بمعنى غمط الناس.

س: ما هي درجات وأقسام الناس في الكبر؟

ج: اعلم: أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقرًا في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها. الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصغر خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلًا ما أدب الله به نبيه ﷺ، حين قال: ﴿وَلْخُفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوي والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً.

قال ابن عباس: «يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى». قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وكذلك التكبر بالمال، والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك، فالكبر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتجار ونحوهم.

والتكبر بالجمال أكثر ما يجري بين النساء، ويدعوهم إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب.

وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجري بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً، فإن لم يكن في نفسه كمالاً، أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور، لظنه أن ذلك كمال.

س: وما أمارات الكبر وعلاماته؟

ج: التكبر يظهر في شمائل الإنسان، كصعر وجهه، ونظره شزراً، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعا ومتكئا، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضاً في مشيه وتبخره، وقيامه وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

س: لو ذكرت بعض خصال المتكبرين؟

ج: من خصال المتكبر: أن يحب قيام الناس له.
والقيام على ضربين:

قيام على رأسه وهو قاعد، فهذا منهي عنه، قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» [أخرجه الترمذي (٢٧٥٥)، وأبوداود (٥٢٢٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٩٥٧)]. وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

الثاني: قيام عند محيء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك.

قال أنس: «لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك».

وقد قال العلماء: يستحب القيام للوالدين والإمام العادل، وفضلاء الناس، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه، لم يأمن أن ينسبه إلى إهائته، والتقصير في حقه، فيوجب ذلك حقداً.

واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك، ويرى أنه ليس بأهل لذلك. ومن خصال المتكبر: أن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه.

ومنها أن لا يزور أحدًا تكبرًا على الناس.

ومنها أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه.

وقال ابن وهب: «جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد، وإن فخذني لتمس فخذته فتحيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرني إليه وقال: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف منكم رجلًا شرًا متى؟!»

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلًا في بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ. ومنها أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته،: «وقد اشترى رسول الله ﷺ شيئًا وحمله»، وكان أبو بكر رضي الله عنه: «يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها». «واشترى عمر رضي الله عنه لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته». واشترى علي رضي الله عنه تمرًا فحمله في ملحفة، فقال له قائل: أحمل ذلك؟ قال: «لا، أبو العيال أحق أن يحمل».

وأقبل أبو هريرة رضي الله عنه يومًا من السوق وقد حمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة مروان، فقال لرجل: «أوسع الطريق للأمير».

ومن أراد أن ينفي الكبر، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة رسول الله ﷺ، وقد سبقت الإشارة إليها في كتاب «آداب المعيشة».

س: وما السبيل إلى علاج الكبر ومداواته؟

ج: اعلم: أن الكبر من المهلكات، ومداواته فرض عين، ولك في معالجته مقامان:

الأول: في استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نقطة خرجت من مخرج البول، ثم من علقه، ثم من مضغة، فقد صار شيئًا مذكورًا، بعد أن كان جهادًا لا يسمع ولا يبصر، ولا

يحس ولا يتحرك، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه. وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ ۖ مِنْ تَطَفُّعِ خَلْقِكُمْ فَقَدَرْتُمْ﴾ [عبس: ١٨، ١٩] ثم امتن عليه بقوله: ﴿ثُمَّ السَّيْلَ يَتَرَوُا﴾ [عبس: ٢٠]، وبقوله: ﴿فَجَعَلْتُهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الذمر: ٢] فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدنيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهده وقواه. فمن هذا بدايته، فأى وجه لكبره وفخره؟ على أنه لودام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق، بل قد سلط عليه الأخلاط المتضادة، والأمراض الهائلة، بينما بنياته قد تم، إذ هو قد وهب وتهدم، لا يملك الشيء لنفسه ضرًا ولا نفعًا، بينما هو يذكر الشيء فينساه، ويستلذ الشيء فيرديه، ويروم الشيء فلا يناله، ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة.

هذا أوسط حاله، وذاك أول أمره، وأما آخر أمره، فالموت الذي يعده جمادًا كما كان، ثم يلقي في التراب فيصير جيفة منتنة، وتبلى أعضاؤه، وتنخر عظامه، ويأكل الدود أجزاؤه، ويعود ترابًا يعمل منه الكيزان، ويعمر منه البنيان، ثم بعد طول البلى تجمع أجزاؤه المتفرقة، ويحضر عرضه القيامة، فيرى أرضًا مبدلة، وجبالًا مسيرة، وسما منشفة، ونجومًا منكدرة، وشمسًا مكورة، وأحوالًا مظلمة، وجحيمًا تزفر، وصحائف تنشر، ويقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ نِيفِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

فيقول: وما كتابي؟ فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل، من قليل وكثير، وقيام وقعود، وأكل وشرب، وقد نسيت ذلك، وأحصاه الله تعالى، فهلم إلى الحساب عليه، وأعد جوابًا له، وإلا فأنت تساق إلى النار، فما لمن هذه حاله التكبر؟ فإن صار إلى النار، فالبهاائم أحسن حالًا منه، لأنها تعود إلى التراب، ومن هذا حاله وهو على شك من العفوعن أخطائه، كيف يتكبر؟! ومن الذي يسلم من ذنب يستحق به العقوبة، وما مثله إلا كمثّل رجل جنى على ملك جناية استحق أن يضرب لأجلها ألف سوط، فحبس في السجن ليخرج ليخرج فيعاقب، وهو منتظر أن يدعي به لذلك. أفتراه يتكبر على أهل

السجن؟ وهل الدنيا إلا سجن، وهل المعاصي إلا موجبة للعقاب؟
وأما معرفة ربه، فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعته، فتلوح له
العظمة، وتظهر له المعرفة، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر.
ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده، وذلك بالمواظبة على
استعمال خلق المتواضعين، وقد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله ﷺ، وما كان
عليه من التواضع والأخلاق الجميلة.

المقام الثاني: فيما بعرض من التكبر بالأنساب، فمن اعتراه الكبر من جهة
النسب، فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره، ثم يعلم أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة
قذرة، وأباه البعيد تراب، ومن اعتراه الكبر بالجمال، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء،
ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومن اعتراه من جهة القوة، فليعلم أنه لو آله عرق،
عاد أعجز من كل عاجز، وإن حمي يوم تحلحل من قوته ما لا يعود في مدة، وأن
شوكة لودخلت في رجله لأعجزته، وبقة لودخلت في أذنه لأقلقته.

ومن تكبر بسبب الغنى، فإذا تأمل خلقاً من اليهود، وجدهم أغنى منه، فأف
لشرف تسبق به اليهود، ويستلبه السارق في لحظة، فيعود صاحبه ذليلاً. ومن تكبر
بسبب العلم، فليعلم أن حجة الله على العالم أكد من الجاهل، وليتفكر في الخطر
العظيم الذي هو بصده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من
قدر غيره. وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق بالله سبحانه، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً
عند الله تعالى بغيضاً عنده. وقد أحب الله منه أن يتواضع، وكذلك كل سبب يعالجه
بنقيضه ويستعمل التواضع.

واعلم: أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط:
فطرفه الذي يميل إلى الزيادة تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً
ومذلة.

والوسط يسمى تواضعاً، وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غير مذلة، فخير

الأمور أوساطها، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر، ومن تأخر عنهم، فهو متواضع، لأنه قد وضع شيئاً من قدره، فأما إذا أدخل على العالم إسكاف أو نحوه، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب، فقد تحاسس وتذلل، فذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، لكن تواضعه للسوقة بالرفق في السؤال واللين في الكلام، وإجابة الدعوة، والسعي في الحاجة، ولا يحقره، ولا يستصغره، والله أعلم.

العجب

س: اذكر بعض الأحاديث والآثار في ذم العجب؟

ج: روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما رجل يتبختر في بردين وقد أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» [أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨)].

وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوي متبع، وإعجاب المرء بنفسه» [أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٤٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٤٥)].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «الهلاك في شيئين: العجب، والقنوط، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقنوط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى».

قال مطرف رضي الله عنه: «لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً، أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً».

واعلم: أن العجب يدعو إلى الكبر؛ لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق فأما مع الخالق، فإن العجب بالطاعات